

السوق (ألبازار)

قبل البحث حول تأثير السوق على تخطيط المدن والعمارة نبحت بصورة مختصرة حول تولد الأسواق من الناحية الاجتماعية.

النظرة السريعة به تاريخ التمدن أو الحضارة نجد أن الروابط الاجتماعية بدأت مع تكون النظم الاجتماعية , وفي العصور البدائية وقبل تكون القبائل كانت احتياجات الفرد تنحصر به أشياء بسيطة الذي كان الإنسان يحصل عليها بمفرده وبعد بدأ الحضارة وإيجاد الروابط , نوع الاحتياجات تغيرت وتوسعت , ووصلت إلى التكامل النسبي الذي نشاهده الآن , ومع سير النظم الاقتصادية بالتوسع وتقسيم العمل تطور الإنتاج ووجدت نظم جديدة مثل التوزيع ولذا يمكن تقسيم هذه النظم بصورة عامه كالآتي .

1- الإنتاج (المنتجون).

2- التوزيع (الموزعون).

3- الاستهلاك (المستهلكون).

أن الروابط بين هؤلاء الطبقات كان السبب لا يجاد النظم الاقتصادية والسياسية . وقبل النظام الاقتصادي وتقسيم العمل إن طبقة الموزعون كانوا غير موجودين وبعد إيجاد الروابط الاجتماعية والاقتصادية ظهوروا في الساحة الاقتصادية , وهم يشكلون الطبقة بين المنتجين والمستهلكين .

ويجب أن نذكر بان في التبادل التجاري أوفي النشاط الاجتماعي توجد عوامل عديدة مرتبطة مع البعض تبني أو تخلق مبادلات أخرى موازية مع بعضها البعض . وهنا تبدأ فكره إيجاد السوق.

السوق الذي هو موضوع بحثنا كمرکز للنشاط الاقتصادي , كان كذلك مركزاً للأنشطة الثقافية والأيدولوجية ومع سير الحضارة أو التمدن من الشرق (الصين) وعبورا بآسيا الوسطى والشرق الأوسط والوصول إلى أوروبا نصل إلى هذه الحقيقة بان الحضارة تنقلت عبر هذه المناطق على أساس التبادل الاقتصادي (التجارة). كذلك نرى إن من أهم عوامل انتشار الدين الإسلامي هو العامل الاقتصادي (التجارة) , التجار كان لهم دور مهم وفعال في نشر الحضارة الإسلامية.

لذا نرى بان التجارة هي من أهم عوامل العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع والمجتمعات . وبعد هذه المقدمة نتطرق إلى مراحل إيجاد الأسواق (ألبازار) و تكامله .

كان السوق مكان بسيط ومع نمو احتياجات المجتمع والفرد تغير وتحول السوق لذا يمكن أن نقول بان السوق يتبع الزمن, الاحتياج بالتنوع والتغيير دفع الإنسان الحجري بتبادل السلع وكان يعيش في الغار ويستعمل الوسائل ألا وليه في حياته, وكان يحصل على هذه السلع بالتبادل مع السلع الذي كان يصنعها بيده, (المقايضة) وبما أن موقعه الاجتماعي كان لا يسمح بان يقوم بعملية التبادل بصورة غير منتظمة من ناحية المكان والزمان لذا اضطر بعرض البضائع الذي صنعه بيده في ميادين المدينة, كما نرى هذه الظاهرة بين الطرق من مدينه وأخرى في وقتنا الحاضر, أن هذا التجمع لتبادل السلع كان غير مصون من التغيرات الجوية القاسية, و كذلك لتسهيل عملية الارتباط, الذي اصبح هذا التجمع يومياً "بدلاً" من يوم أو يومين لذا اضطر الإنسان إلى بناء مكان آمن و مسقوف. مع تطور كل شئ تطور هذا الملجأ واصبح السوق مكان مهم لتبادل البضائع والى التوزيع والشراء.

إن السوق كان مركز اجتماعي مهم وكان يحل المكان المركزي في تخطيط المدن وذلك لسهولة الوصول إليه من قبل الجميع, وكما نرى أن السوق ظاهرة بارزه في المدن. إن شكل وهيكل السوق يتأثر بقوة مع المسائل الاجتماعية والصناعية و مع تطورها تغيرت الأسواق وتغيرت المساحات والأشكال.

السوق كان دائماً "قلب النابض للمدن واهم المراكز التجارية والاقتصادية, وزوايا مداخل السوق كانت دائماً" تشكل الواجهة البارزة للقلب الاقتصادي للمدينة والأسواق التراثية تثبت هذه الظاهرة, إن اكثر المدن بدأت بالتبادل التجاري البسيط ثم السوق ومع تكامل الخدمات من سكن وغيرها و عدم وجود النقل السريع تجمعت هذه الخدمات حول السوق وعلى هذا الأساس بدأت المدينة تتكون.

واكثر المدن الساحلية تكونت على أساس فكره التبدل التجاري بين سكان البادية وتجار السفن المترددين بين المدن الساحلية التي تكونت بدورها على هذا الأساس في زمن بعيد, ومثال على هذا مدينه دبي التي تقع على طريق مرور السفن وتردها بين مدينه البصرة التاريخية و بوشهر من جهة ومدينه بمبي وحضرموت من جهة أخرى.

إن ارتباط الأمور التجارية مع بقية الأنشطة الاجتماعية تشكل الواجهة البارزة في المجتمع المعاصر مثلاً" نرى في الأسواق القديمة المسجد, المدرسة, الحمام, وبقية المراكز تأخذ مكانتها لتلبية حاجات الزبائن و اصحاب المحلات في السوق.

كما أشرنا إن الأسواق بالإضافة إلى النشاط التجاري كان مكان ألا نشطة السياسية والثقافية والدينية وكان السوق ملتقى الثقافات, بالإضافة إلى حركة البيع والشراء كان الشعراء ينشدون الشعر والخطب وألوان الأدب.

كانت العلاقات قوية وحسنة بين الناس في السوق (التجار) من جهة ومع الزبائن من جهة أخرى, أن هذه العلاقات أصبحت مرتبطة بالتجارة مثلاً" أن التبادل التجاري بحاجة إلى اعتماد أو الثقة لذا نرى التجار الملتزمين بالدين هم اكثر اعتماداً من قبل الزبائن ومن قبل بقية التجار.

لا زال السوق التراثي في بعض المدن الكبيرة له مكانته من الناحية التجارية والاقتصادية وتعد من مراكز جلب السياح منها سوق الحميدية في دمشق و أسواق استنبول و طهران ومدن عربية و إسلامية أخرى في وقتنا الحاضر . سوق عكاظ قرب الطائف يعتبر من أشهر الأسواق العربية في زمن الجاهلية والإسلامية وكذلك سوق الكناسة في الكوفة وسوق المرصد في البصرة في الإسلام.

بالإضافة إلى الهيكل الظاهري والمعماري للسوق نرجع إلى جانب الحياة الاجتماعية والمعنوية للسوق وهذه الحياة مرتبطة على الشكل المعماري مثلا كانت الدكاكين ليس لها أبواب وعوازل زجاجية تفصلهم مع الزبائن وكانوا أصحاب المحلات خلف البسط والمعروضات بدون حاجز يفصلهم مع الزبائن (كما موجود حاليا) وكذلك كانوا في ارتباط مستقيم مع جيرانهم من المحلات يتكلمون ويناقشون أمورهم المرربوط بعملهم والمسائل الاجتماعية الأخرى ويمكن أن نقول أن السوق كان عبارة عن شبكة ارتباطيه ومعلوماتية بين أفراد السوق والمدينة . إن المراكز المهمة مثل المساجد وغيرها كانت تقع في الأزقة ومسارات السوق وكانوا التجار و أصحاب المحلات يجتمعون في أوقات الصلاة مع الزبائن لذا هم جميعا" في ارتباط وثيق وفي سير الأحداث والمسائل الاجتماعية , يمكن أن نعتبر السوق من ابرز المراكز الاجتماعية في ذلك الوقت , ولا زال يحتفظ مكانته وحياته في بعض المدن .

إن في اكثر المدن قديما كانوا التجار و أصحاب المحلات هم كتله واحدة ذات عقائد وأفكار متشابهة ولذا كان السوق له مكانته في المدينة ,وحتى الأشخاص الذين لم يملروا بالسوق كانوا ينتظرون الأخبار المؤيدة والمعاكسة بالنسبة للحوادث الجارية في المدينة , ونلاحظ أن السوق بالاضافه إلى مكانته الاقتصادية كان مركز الأنشطة الدينية والثقافية , وان مجتمع السوق اقل تأثير بالثقافة الغربية والحياة الآلي وعلى هذا الأساس نرى أن الارتباط العاطفي والإنساني بين أفراد السوق تكون وثيقة وقوية.

وعندما نتحدث عن السوق التراثي وأشكالها الظاهرية يجب أن نبحث عن الارتباط الروحي والمعنوي وراء هذا الإبداع من طرف المصمم المعماري وارتباطه بالمجتمع .

أن من أهم جوانب السوق هو موقعه الاستراتيجي بالنسبة للمدينة وكان السوق قلب المدينة والعمود الفقري بالأخص في المدن التي كانت تقع على (طريق الحرير) الذي يمتد من الصين إلى البحر الأبيض المتوسط والذي كان يربط الصين به أوروبا , ويعتبر طريق ملتقى الحضارات أن ذلك.

ونستنتج من تاريخ وجود ألا نشطه الثقافية على أنواعها في ألا سواق , بان التوسع الاقتصادي والاجتماعي السليم مرهون بالتوسع الثقافي , وان التوسع الاقتصادي بصورة عامة ينعكس على النشاط الثقافي وهذا بدوره يتأثر بالحياة الاقتصادية .

تحول :

أحدثت التطورات الاقتصادية والاجتماعية تغييرا في نظام ألا نشطه التجارية وهذه التغييرات سببت تأثيرا عميقا في النظام البيع والشراء وتوزيع البضائع بالأخص عند استعمال وسائل النقل الحديثة التي استلزمت الطرق لها وهذه غيرت من مخطط المدن . إن شبكه المعابر والطرق كانت متناسبة مع نظام النقل في حينه وغير متناسبة مع النظام النقل الجديد , والتغييرات حدثت بصورة مفاجئه و سريعة وهذه أحدثت أضرارا على الهيكل الارتباط التراثي .

والسبب الآخر لتقليل أهمية ألا سواق و الأبنية التراثية من الناحية الفنية هو صيانة الأبنية بصورة غير مدروسة وعدم التوجه إلى الأمور الفنية والمناخية , فأصبحت توسعه هذه الأسواق غير لائقة فنيا وفقدت روحها التراثي .

يمكن الاستفادة من هذه الأسواق التراثية بعد صيانتها بصورة صحيحة كعنصر اقتصادي وتجاري وفي نفس الوقت لجلب السياح وكذلك للأنشطة الثقافية وتعريف تراث وثقافة البلاد للمتسوقين والسياح .

أن إيجاد التسهيلات في أمور النقل والمواقف والتخزين والخدمات الكافية وتجمع الأصناف بصورة صحيحة يجعل السوق من أهم مراكز التجارة و التسوق الناجح بعد دراسة المسائل من ناحيه الكم والكيف والتوزيع الصحيح , والاهتمام بثقافة وتراث البلد, وخلطه بالنشاط الاقتصادي في الأسواق و مراكز التسوق لنقل الروح التراثي والمعنوي من الماضي إلى المستقبل .

المهندس : عباس شمس الدين

2004/10/24

